أهم أقطاب بغداد في العصر العباسي

(132-656هـ/749-1258م) في مؤلفات الإمام الذهبي

(رحمه الله تعالى)

The Most Important Poles of Baghdad in the Abbasid era (132-656 AH / 749-1258 AD) in the Writings of Imam Al-Dhahabi (may Allah Almighty have mercy on him)

م.د. جعفر إبراهيم عباس

Lect. Dr. Jaffar Ibrahim Abbas

المديرية العامة لتربية ديالى

General Directorate of Education Diyala

E-mail: Jafaarabas7@gmail.com

الكلمات المفتاحية: أقطاب، بغداد، الذهبي.

Keywords: Poles, Baghdad, Al-Dhahabi.

الملخص

كانت الحضارة الإسلامية تزخر بعلمائها الأعلام وتزدهر على مدى عصورها، لاسيما العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م) عصر الحضارة والتطور والإبداع في شتى المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولا يخفى دور أولئك العلماء الأعلام في بناء تلك الحضارة وإرساء دعاماتها، وعلى الرغم من اشتراكهم في صفات الزهد والورع والتقوى، إلا أنهم قد اختلفوا في ما اختصوا به من علوم، فبرع قسم منهم في العلوم الفقهية حتى صاروا فقهاء وصارت علومهم مذاهب فقهية تتبع، وبرع آخرون في العلوم الدينية وبرعوا في إيصال علومهم في المدارس التي كانت نواتها انطلاقًا من ذلك العصر، فكان لهم آلاف التلاميذ في تلك المدارس، وترك الكثيرون منهم مؤلفات مهمة في المجالات التي برعوا بها فكانت أساسًا لتلك العلوم إلى يومنا هذا، لذا سيكون بحثنا هذا هو بيان لما ورد في مؤلفات الإمام الذهبي التي اختصت بذكر سير اعلام العالم الإسلامي في بغداد وبيان اهميتها نسبة إلى كتب التراجم والسير العربية الاسلامية، عن طريق بيان سير أولئك الأقطاب الشخصية والعلمية فيها، ليبان أهميتهم لتكرار ذكرهم في تلك المصادر المهمة، ولأهمية تلك المؤلفات نسبة إلى مؤلفات التاريخ والسير.

Abstract

The Islamic civilization is full of scientists flags and flourishes throughout the ages, especially the Abbasid era (132-656 AH / 749-1258 AD) the era of civilization, development and creativity in various scientific, cultural, social, political and economic fields, and the role of those scientists is not hidden in the construction of that civilization and the establishment of its pillars, and despite their participation in the qualities of asceticism, piety and piety, but they have differed in what they specialized in science, so some of them excelled in the sciences of jurisprudence until they became jurists and their sciences became doctrines Jurisprudence follow, and excelled others in religious sciences and excelled in the delivery of their sciences in schools that were the nucleus of that era, they had thousands of students in those schools, and left many of them important literature in the areas in which they excelled were the basis for those sciences to this day, so our research will be this is an inventory of what was mentioned in the writings of Imam Al-Dhahabi, which specialized in mentioning the biographies of the flags of the Islamic world, for the biographies of those personal and scientific poles, Liban Their importance is due to the repetition of their mention in these important sources, and to the importance of these works relative to the writings of history and biographies .

المقدمة

إن لكل عصـر من العصـور الإسـلامية ميزة وملامح تميز بها، فكانت له عنوانًا وشـارة، ومن بين تلك العصـور كان العصـر العباسـي (132-656هـــ/749-1258م) الأبرز، حضـارةً وإبداعًا وعلمًا، ففيه برزت تلك الطاقات الخلاقة في شـــتى المجالات العلمية، وانطلاقًا من ذلك العصـر وضـع أسـاس الكثير من تلك العلوم، وهذا ما شـدنا للبحث عن أهم علماء وأقطاب بغداد في ذلك العصـر، وما كتب عنهم في مؤلفات الإمام الذهبي من سـيرة شـخصـية وعلمية، كونه قد تناول سـير الكثير من علماء العالم الإسـلامي واعلامه في تلك المؤلفات من صـدر الإسـلام إلى زمانه، إذ عدت مؤلفاته من أبرز وأهم المؤلفات بذلك الشأن لاسيما كتابيه (تاريخ الإسلام ووفيات المشـاهير والاعلام) و(سـير الاعلام والنبلاء)، فكان التركيز في بحثنا على تلك الثلة المميزة من العلماء الأعلام ممن وصـــفوا بأقطاب ذلك العصـــر، لأهميتهم وللأثار والمؤلفات التي خلفوها، فكانوا منارًا وقدوة يحتذى بها، كونهم قد ميزوا أنفســـهم بالتزامهم جانب العلم والزهد والعبادة، وابتعادهم عن كل تلك المغريات والفتن التي اســـتعرت بذلك العصـــر، وهذا ما دفع الكثير من طلاب العلم آنذاك للاقتداء بهم والاســـتزادة من علمهم وفضـــلهم، فتخرج على أيديهم الكثير من علماء ذلك العصر ممن جاء بعدهم من تلاميذهم، ولكثرة مؤلفات الإمام الذهبي التي تناولت سير اعلام وعلماء العصور الإسلامية، سنقوم ببحث بأبرز تلك المؤلفات التي تناولت سير أهم أقطاب بغداد في العصر العباسي وإيجاز ما جاء فيها عن سيرهم الشخصية والعلمية.

وسنعرف في بحثنا هذا بداية بإيجاز عن حياة الإمام الذهبي (رحمه الله تعالى) الشخصية والعلمية، وما هي أهم مؤلفاته، ثم سـنعرف بعد ذلك بلفظ قطب لغةً واصـطلاحًا، ثم نخوض في غمار موضـــوعنا لنتعرف على أهم ما ذكر في تلك المؤلفات عن أهم أقطاب بغداد في العصـــر العباسـي. ولا ندعي باننا سـنحيط بكل ما ذكر عن أولئك الاعلام في تلك المؤلفات، فكان هذا ما مكننا الله تعالى منه والله ولي التوفيق.

حياة الإمام الذهبي (رحمه الله) الشخصية والعلمية:

أولاً: حياته الشخصية:

أ- اسمه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز[1]، أبو عبد الله، شـــمس الدين، الذهبي، الدمشـــقي، الشـــافعي[2]، التركماني، الفارقي نســـبة إلى ميافارقين[3]. وترجع نســـبته إلى الذهب واستخراج الغش منه، وقد كان بحق ذهبي عصره كما وصف[4].

ب- مولده ووفاته:

كانت ولادة الإمام الذهبي (رحمه الله) بعد سقوط الدولة العباسية بعشرين عام تقريبا سنة (673هـ/1274م) في مدينة دمشق[5]. أمّا وفاته فكانت في سنة (748هـ/1348م) في مدينة دمشق التي كانت ولادته فيها[6].

ثانيًا: حياته العلمية:

أهم علومه ومؤلفاته:

1- علمه بالقرآن الكريم والقراءات:

لقد ذكر كثير من المؤرخين ممن ترجموا لحياة الإمام الذهبي (رحمه الله) بأنه قد تفرد بالسماع لعدد من قراء عصره، حتى وصفوه بقولهم: ((المقرئ))[7]، وقولهم: ((لافظ لا يبارى))[8]. ومن أهم مصنفاته في هذا المجال: (طبقات القراء)[9].

2- علمه بالحديث الشريف:

برع الإمام الذهبي (رحمه الله) في علم الحديث الشريف واجتهد في حفظه فعد مع أهم حفاظه و أتقنهم، فكان حافظًا نقادًا عالمًا بأحواله ورجاله، حتى قيل فيه: ((حافظ لا يجارى، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله))[10]، وقد ألف الكثير من المصنفات المهمة في علم الحديث ورجاله ونقده وعلله، منها: (طبقات الحفاظ) و(ميزان الاعتدال) و(الكاشف) و(اختصار سنن البيهقي) و(تنقيح أحاديث التعليق)، و(المغني في الضعفاء) و(اختصار المستدرك)[11]، وغيرها.

3- علمه بالفقه:

كان الإمام الذهبي (رحمه الله) قد برع في علم الفقه كغيره من العلوم الأخرى التي برع بها، ويتبين ذلك من تصانيفه التي وضعها في هذا الشأن، ومنها: (الكبائر) و(تحريم الأدبار) و(اختصار كتاب الجهاد للبيهقي) و(ما بعد الموت)[12]، وغيرها.

4- علمه بالتاريخ:

كان الإمام الذهبي (رحمه الله) عالمًا موسوعيًا شاملًا، فقد خاض وبرع في أغلب العلوم السائدة في عصره بعد سقوط الدولة العباسية وصنف فيها، وتكاد تكون تصانيفه بالتاريخ من أهمها وأروعها، وقد شهد له كثير من العلماء بذلك بقولهم: ((وعرف تراجم الناس، وأبان الإبهام من تواريخهم والإلباس))[13]، وقولهم: ((مؤرخ الإسلام وفرد الدهر والقائم بأعباء هذه الصناعة))[14]. ومن أهم تصانيفه في هذا المجال: (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام) و(سير اعلام النبلاء) و(الدول الإسلامية) و(العبر في خبر من غبر) و(فتح المطالب في أخبار

علي بن أبي طالب) و(أخبار أبي مسلم الخراساني) واختصاره لكتب: (تهذيب الكمال) و(تاريخ ابن عساكر) و(تاريخ الخطيب البغدادي)[15], وغيرها من التصانيف.

معنى الأقطاب:

أ- لغة:

القطب لغة: القاف والطاء والباء أصل صحيح يدل على الجمع، يقال: جاءت العرب قاطبة، إذا جاءت أجمعها، ويقال: قطب الرجال ما بين عينيه أي جمع، فهو قطب وجهه أي عبس، ومنها قطب السماء، نجم يدور عليه الفلك[16].

ب- اصطلاحًا: يقال: فلان قطب بني فلان، أي سيدهم الذي يلوذون به والذي يدور عليه أمرهم، وصاحب الجيش قطب رحى الحرب، والقطبية: مرتبة قطب الأقطاب وباطن نبوة محمد (ﷺ) فلا يكون إلا لورثته، لاختصاصه عليه بالأفضلية، فلا يكون خاتم الولاية، وقطب الأقطاب الأعلى إلا باطن خاتم النبوة[17].

وأخذ هذا اللقب مشايخ الصوفية، إذ أخذوا يطلقونه على علية مشايخهم وبه عرفوا[18].

وقد استخدمت هذه اللفظة تاريخيًا لأغراض شتى ومن عصر إلى عصر تبعًا لما يحمله معناها، فقد كانت مرة للتدليل على أمور كونية ثم للدلالة على أمور فكرية، ثم لمنزلة دينية أو علمية أو إدارية، وقد تطورت مدلولاتها حسب المرحلة التي مرت بها عبر التاريخ.

أقطاب بغداد في مؤلفات الذهبي (رحمه الله):

لقد كان لأقطاب بغداد نصيب وافر في مؤلفات الذهبي الكثيرة، وخاصة تلك التي أفردها لسير وتراجم رجال الدولة العربية الإسلامية، معرفًا بهم وبأحوالهم، مبينًا كل ما وقع من إبهام في تواريخهم، ذاكرًا الأحداث التي تخصهم، وهذا ما سنحاول بيانه في بحثنا هذا بعد الاتكال على الله، مرتبين إياهم حسب سني وفاتهم:

أولاً: أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (رحمه الله)[19] (80هـ-150هـ/699-767م):

ولادته:

كانت ولادته سنة (80هـ/699م) في الكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان، وقد أدرك جماعة من الصحابة، وكان من التابعين لهم، فسمع أبا حنيفة يقول: ((رأيت أنسًا ﷺ))[20]من الصحابة.

نشأته، مهنته:

بعد الاطلاع على أكثر مؤلفات الذهبي التي ترجم بها وعرف عن حياة أبي حنيفة فأنا لم نعثر على ذكر له عن بدايات نشأة أبي حنيفة في أي منها، بل أنه لم يتطرق حتى إلى بدايات حياته العلمية وكيف تدرج حتى وصل إلى ما وصل إليه، ((وانه لم يرو عن أحد من الصحابة

الذين أدركهم ولو حرف واحد، وعني بطلب الآثار وارتحل في ذلك، وأمّا الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك، وعاهد نفسه أن يلزم مجلس شيخه حماد حتى مات لمدة ثماني عشرة سنة))[21].

ولم يذكر الذهبي إلا الشيء اليسير عن عائلة أبي حنيفة(رحمه الله) مكتفيًا بما نقل عن حفيده عمر بن حماد بن أبي حنيفة قوله عن جده وعن والده: ((أما زوطي: فإنه من أهل كابل- (من بلاد ما وراء النهر في المشرق الاسلامي)-، وولد ثابت على الإسلام، وكان زوطي مملوكًا لبني تيم الله بن ثعلبة فأعتق فولاءه لهم))[22]. ثم قال: ((وكان أبو حنيفة خزازًا[23]، ودكانه معروف))[24]، وذكر قول اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: ((ولد جدي في سنة ثمانين، وذهب جدي ثابت إلى علي (عليه السلام) وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، ونحن نرجو من الله أن يكون استجاب ذلك لعلي (عليه السلام) فينا))[25]. وهذا كل ما ذكر عند الذهبي عن نشأته وعائلته.

علومه:

وعن رواية أبي حنيفة للحديث قال: ((كان أبو حنيفة ثقة، لا يحدث بالحديث إلا بما يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظه. وقال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم، جعلت أتخير العلوم، واسأل عن عواقبها، فقيل: تعلم القرآن، فقلت إذا حفظته فما يكون اخره ؟ فقالوا تجلس في المجلس في المسجد فيقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لا يلبث ان يخرج من هو أحفظ منك أو مساويك، ثم سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن احفظ مني، قالوا: وإذا كبرت وضعفت، ثم لم تأمن ان تغلط فيرموك بالكذب، فقلت: لا حاجة لي في هذا، ثم قلت: أتعلم النحو والعربية، قالوا: تقعد معلمًا قلت وهذا لا عاقبة له، قلت: فإن نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني، قالوا تمدح هذا فيهيب لك أو يخلع عليك، قلت: لا حاجة فيه، قلت: فإن نظرت في الكلام، قالوا: لا يسلم من مشنعات الكلام ويرمى بالزندقة فيقتل، قلت: وان تعلمت الفقه، قالوا: تسأل وتفتي الناس، وتطلب للقضاء، وإن كنت شابًا، قلت: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا فلزمت الفقه وتعليمه))[26]. ولم يذكر الذهبي شيء عن مؤلفاته أو أن له مصنفات.

صفاته وشمائله:

قال تلميذه أبو يوسف: ((كان أبو حنيفة ربعة من أحسن الناس صورة، وأبلغهم نطقًا، وأعذبهم نغمة، وأبينهم عما في نفسه. وقال حماد بن أبي حنيفة: كان أبي جميلًا تعلوه سمرة، حسن الهيئة، كثير العطر، وهيوبًا، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض فيما لا يعنيه، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها))[27].

قال ابن المبارك: ((ما رأيت أروع من أبي حنيفة، وقد جرب بالسـياط والأموال، وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: مررت مع أبي بالكناسة (في الكوفة)، فبكى، فقلت له يا أبت ما يبكيك؟ قال: يا بني، في هذا الموضع ضرب جدك عشرة أيام في كل يوم عشرة أسواط على أن يلي القضـاء فلم يفعل))[28]. وكان هذا في عهد الدولة الأموية، وقال تلميذ له: ((رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، فقال: والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون بمأمون الغضب؟ فلا أصلح لذلك، فقال: كذبت أنت تصلح، قال: وكيف يحل لك أن تولي من يكذب، فلما لم يقبل العهد بالقضاء، فضرب مائة سوط وحبس، ومات في السجن. وقيل: أن المنصور سقاه السم لقيامه مع إبراهيم[29]،سنة(150هـ/767م)فنال الشهادة والسعادة))[30].

ثانيًا: موسـى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسـين بن علي بن ابي طالب, الكاظم(عليه السلام) [31] (128-183هـ/745-799م):

أ- ولادته ونشأته - صفاته وشمائله:

كانت ولادته بالمدينة المنورة سنة (128هـ-745م) ونشأته فيها، ولم يذكر الذهبي شيء عن نشأته سوى ما ذكره عن ولادته تاريخها ومكانها كما تقدم أعلاه. وقال أنه مدني ونزل بغداد، وذكر قسـم من أولاده عندما تطرق إلى ذكر من حدثوا عنه، ثم عاد مرة أخرى في نهاية ترجمته لموسـى بن جعفر (عليه السلام)، فأشـار إلى مجموعة من أبنائه بقوله: ((وخلف عدة أولاد، الجميع من إماء: علي، والعباس، وإسماعيل، وجعفر، وهارون، وحسن، واحمد، ومحمد، وعبيد الله، وحمزة، وزيد، وإسحاق، وعبد الله، والحسين، وفضل، وسليمان سوى البنات...))[32]، ولم يحددهم بعدد معين. ولم يذكر شيء عن عائلته سوى أنه روى عن أبيه، كما أنه لم يشر إلى أي من أزواجه وزيجاته.

ب- صفاته وشمائله:

كان الإمام موسـى الكاظم سـخيًا كريمًا، قال: ((يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه، فيبعث له بصرة فيها ألف دينار، وكان يصر الصرر بثلاث مائة دينار وأربع مائة، ومائتين، ثم يقسمها بالمدينة فمن جاءته صرة استغنى))[33]. ونقل عن شخص قال: ((قدمت المدينة أطلب بها دَينًا، فقلت: لو أتيت موسى بن جعفر، فشكوت إليه، فأتيته بنفسي في ضيعته فخرج إلي، وأكلت معه فذكرت له قصـتي، فأعطاني ثلاث مائة دينار. وذكرو له ان رجلًا يؤذيه ويشـتم عليًا، فقال له حاشـيته: دعنا نقتله فنهاهم، وقيل له ان يزرع بأرض، فركب حماره ووطأ بها مزرعته، فصـاح عليه لا توطئ زرعنا، حتى وصـل إليه ونزل عنده وضـاحكه، فقال: كم غرامة زرعك، فقال: لا أعلم الغيب وأرجوا أن يجيئني مئتا دينار، فأعطاه ثلاثمائة دينار، فقام فقبل رأسـه وقال: الله اعلم

حيث يجعل رسالاته، فقال أبو الحسن لخاصته الذين أرادوا قتله هل ما أردتم خير أم ما أردت أن أصلح الله أمره بهذا المقدار، قلت فهذا غاية الحلم والسماحة))[34].

لقد استمر خلفاء بني العباس في منهجهم بالتضييق على رجال أهل بيت النبي ﷺ، حدث الفضل بن الربيع (مولى الخليفة العباسي محمد المهدي وابنه الخليفة هارون الرشيد ووزيرهما) عن أبيه قال: ((لما حبس المهدي موسى بن جعفر رأى في النوم عليًا يقول: يا محمد [فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم] [35]. قال الربيع فأرسل إلي ليلًا فراعني فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان أحسن الناس صوتًا، وقال علي بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جنبه وقال: يا أبا الحسن أني رأيت أمير المؤمنين يقرأ علي كذا فتؤمني أن تخرج عليّ أو على أحد من ولدي فقال: لا والله لا فعلت ذلك ولا هو من شأني قال: صدقت يا ربيع أعطه ثلاث آلاف دينار ورده إلى أهله إلى المدينة فأحكمت أمره ليلًا فما أصبح إلا وهو في الطريق خوف العوائق))[36].

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/786-808م)، يقال: ((حج الرشيد فأتى قبر النبي (ﷺ) ومعه موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم افتخارًا على من حوله، فدنا موسى وقال: السلام عليك يا أبه, فتغير وجه هارون وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقًا))[37]. ويبدو ان هذه المحادثة قد أبقت في نفس الرشيد شيء على الإمام موسى بن جعفر فحبسه. قال: ((حبس موسى بن جعفر عند السندي بن شاهك[38]، فسألته أخته ان تولى حبسه وكانت تدين ففعل فكانت على خدمته، فحكي لنا انها قالت: كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجده ودعاه فلم يزل كذلك حتى يزول الليل فإذا زال الليل قام صلى حتى يصلي الصبح ثم يقوم يذكر حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيأ ويستاك، ويأكل، ثم يرقد إلى قبل الزوال ثم يتوضأ ويصلي العصر، ثم يذكر حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة. فكانت تقول: خاب قوم تعرضوا لهذا الرجل وكان عبدًا صالحًا))[39]. وقيل بعث موسى الكاظم إلى الرشيد برسالة من الحبس يقول: ((انه لم ينقضي عني يوم من البلاء، إلا انقضى عنك معه يوم الرخاء، حتى نفضي جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون. و قال سجانه السندي: كان موسى عندنا محبوسًا فلما مات، بعثنا إلى جماعة من العدول من الكرخ فأدخلناهم عليه فأشهدناهم على موته، ودفن في مقابر الشونيزية[40]))[41].

حياته العلمية:

لم يتصدى الذهبي في مؤلفاته للحياة العلمية لموسى بن جعفر (عليه السلام) سوى ما ذكره من أنه حدث عن أبيه وروى عنه أولاده المار ذكرهم.

وفاته:

كانت وفاته في بغداد في حبس هارون الرشيد سنة (183هـ/799م)، كما تقدم وقد عاش خمسًا وخمسين سنة (رحمه الله تعالى)، وكان له مشهد عظيم مشهور في بغداد، ودفن معه حفيده محمد الجواد (عليه السلام)[42].

ثالثًا: معروف بن الفيرزان الكرخي (رحمه الله)[43] (200هـ/815م):

نسبته، كنيته:

من أهل كرخ بغداد، وكان أبواه من أعمال واسط[44]، من الصابئة.

كنيته أبو الحسن، ويقال له أبو محفوظ[45].

اسلامه، وعائلته:

ومما يذكر: ((كان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدب نصراني، فكان يقول له: قل: ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه، فهرب، فكان أبواه يقولان: ليته رجع، ثم أسلم أبواه))[46]. وهذا كل ما ذكره الذهبي عن إسلامه وعن عائلته.

علومه:

اعتنى معروف برواية الحديث. ((وقد ذكر معروف عند احمد بن حنبل فقالوا: قصير العلم، فقال للقائل: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف ؟. وقال سفيان بن عيينة[47] لجماعة من بغداد: ما فعل ذلك الحبرُ عندكم، الذي فيكم ببغداد ؟ قلنا من هو ؟ قال: أبو محفوظ معروف، قلنا: بخير، قال: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم. وعن معروف أنه قال: إذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل))[48].

عبادته وفضائله وكراماته:

عن معروف ((وبعث إليه رجل بعشرة دنانير فلم يأخذها، ومر سائل فأعطاها له، وقيل كان يبكي، ثم يقول: يا نفس كم تبكين أخلصي تخلصي. وقال رجل: حضرت معروفًا، فأغتاب رجل عنده، فقال: أذكر القطن إذا وضع على عينيك، وقال: ما أكثر الصالحين، وما أقل الصادقين، وقال حينما سؤل عن صيامه: أصبح دهري صائمًا ممن دعاني أكلت، ولم أقل اني صائم. وقال كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله، وقيل أنشد مرة في السَّحَر:

ما يضر الذنوب لو اعتقتني رحمة لي، فقد علاني المشيب))[49]

وعنه قال: ((من لعن إمامه حرم عدله، قيل له: إنك تمشي على الماء قال: ما وقع هذا، ولكن إذا اهممت بالعبور جمع طرفا النهر فاتخطاه))[50]. وقال يعقوب: ابن اخي معروف الكرخي: ((قالوا لمعروف استسق لنا، وكان يومًا حارًا، فقال: أرفعوا ثيابكم، فقال: فما استتموا رفع

ثيابهم حتى مطروا، وقد استجاب الله لمعروف في غير ما قضية))[51]. وقالوا: ((قبر معروف الترياق المجرب، يراد الدعاء عنده لأن البقاع المباركة يستجاب فيها الدعاء))[52].

وفاته:

ذكر الذهبي تاريخ وفاته وقال الصحيح أن وفاته سنة (200هـ/815م)[53].

رابعًا: محمد بن علي بن موسى بن جعفر الجواد (عليه السلام)[54] (220هـ/835م):

لم نعثر خلال اطلاعنا على أكثر مؤلفات الذهبي على ترجمة مفصلة عن حياة محمد الجواد (عليه السلام) سوى بعض الإشارات القليلة عن حياته السياسية ووفاته، ربما لقصر الفترة التي عاشها, أو لأنه لم يبلغ تلك المرتبة العلمية والشهرة التي بلغها آباءه(عليهم السلام)، وكانت أكثر ترجمة ترجم له فيه هي تلك التي في كتابه العبر في خبر من غبر، بقوله: ((وفيها الشريف أبو جعفر محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم الحسيني، أحد الاثني عشر إمامًا الذين يدعي الامامية فيهم العصمة. وله خمس وعشرون سنة. وكان المأمون قد نوه بذكره وزوجه بابنته، وسكن بها بالمدينة، فكان المأمون ينفذ إليه في السنة ألف ألف درهم أداء كريم، وفد على المعتصم فأكرم مورده توفي في بغداد في آخر السنة ودفن عند جده موسى بن جعفر. ومشهدهما ينتابه العامة بالزيارة))[55]. وكان ذكره ضمن وفيات سنة (220هـ/835م). أمّا في بقية مؤلفاته فلم نجد سوى إشارات قليلة له بين السطور، خلال كلامه عن ابائه وابنائه من أهل البيت (عليهم السلام)، مثل ترجمته لوالده علي الرضا (عليه السلام) قال: ((وابنه محمد الجواد: من سادة قومه، لم يبلغ رتبة آبائه في العلم والفقه))[56]، وعلى ما يبدو هذا الذي جعله يعرض عن الترجمة له بإسهاب، ثم ذكره في كلامه عن الإمام موسى الكاظم في كلامه عن وفاته بقوله: ((وله مشهد عظيم مشهور ببغداد، ودفن معه فيه حفيده الجواد...))[57]، فكان جل ما أشار إليه الذهبي في تلك الإشارات القليلة وهي عن حياته السياسية ووفاته.

خامسًا: أحمد بن حنبل الشيباني(رحمه الله)[58] (164-241هـ/780-855م):

ولادته:

قال صالح بن أحمد بن حنبل: ((قال لي أبي: ولدت في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة(164هـ). ثم قال صالح: وجيء بأبي حمل من مرو، فتوفي أبوه محمد شابًا ابن ثلاثين سنة، فوليت أبي أمه. قال أبي: وكانت قد ثقبت أذني، فكانت أمي تسير فيهما لؤلؤتين، فلما ترعرعت نزعتهما، فكانتا عندها، فدفعتهما إلي، فبعتهما بنحو من ثلاثين درهمًا))[59].

نشأته وطلبه للعلم:

قال ابن حنبل(رحمه الله): ((طلبت الحديث سنة -(179هـ-795م)-)) [60]. ومما ذكر: ((ولد أبو عبد الله ببغداد ونشأ بها، وطلب العلم بها، ثم رحل إلى الكوفة، والبصرة، ومكة،

والمدينة، واليمن، والشام والجزيرة))[61]. وعن حفظه قيل: ((كان أحمد قد كتب الرأي وحفضها، ثم لم يلتفت إليها. وقيل: كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين))[62]. وعن إلمامه بالعلوم قيل: كان إمامًا في الحديث وضـــروبه، إمامًا في الفقه ودقائقه، إمامًا في الســـنة وطرائقها، إمامًا في الورع وغوامضـه، إمامًا في الزهد وحقائقه، رحمة الله عليه))[63]. وقد أفرد الذهبي الصـفحات الكثيرة في مؤلفاته عن علومه ونبوغه.

عائلته:

قال زهير بن صـالح بن أحمد بن حنبل(رحمهما الله): ((تزوج جدي بأم أبي عباسـة بنت الفضـــل، لم يولد منها غير أبي، ثم ماتت. وقال زهير: لما ماتت عباســة تزوج جدي بعدها امرأة من العرب، يقال لها ريحانة، فولدت له عبد الله وحده. وقال زهير: لما توفيت أم عبد الله اشـــترى حسن، فولدت منه زينب، ثم الحسين والحسن توأمًا، وماتا بالقرب من ولادتهما، ثم ولدت الحسن، ومحمدًا، فعاشا حتى صارا من السن إلى نحو من الأربعين سنة، ثم ولدت بعدهما سعيدًا))[64].

أمّا عن حالته المعيشية فيبدو انه كان يعيش في حالة دون المتوسط، وذلك من قول حُسُم أم ولد أبي عبد الله: ((قلت لمولاي أصرف فرد خلخالي، قال وتطيب نفسك ؟ قلت: نعم. وإذا لم يكن عنده يومًا شيئًا فرح ذلك اليوم، وانها باعت غزلًا بأربع دراهم وجاءت لهم بالطعام، وانها عملت له غزلًا ليلبسه، فباعه باثنين وأربعين درهم، تقول: واشتريت منه قطنا، فغزلته ثوبًا كبيرًا، فكان كفنه فكفن فيه))[65].

سيرته وصفاته وشمائله ومناقبه:

قال أحد تلامذته: ((رأيت احمد بن حنبل حسـن الوجه، ربعة، يخضـب بالحناء خضـابا ليس بالقاني، وفي لحيته شـعرات سـود، ورأيت ثيابه غلاظًا، إلا انها بيضـاء، ورأيته معتمًا وعليه إزار))[66]. ولقد أورد الذهبي فصـــلًا عن آدابه في كتابه تاريخ الإســـلام، وســير الأعلام، وقال: ((كان إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب. وقال: أريد أن أكون في بعض تلك الشـــعاب بمكة، حتى لا أُعرب، قد بليت بالشـــهرة، أني لأتمنى الموت صـــباحًا مســـاءً. وأنه كان يكره ان ينام بعد العصـــر خوفًا على عقله. وكان يقول: لا يفلح من تعـاطى الكلام ولا يخلو من أن يتجهم))[67]، وغيره مما قال وعمل وتحلى به كثير مما ذكره الذهبي.

كان أهم ما ميز حياته واشـــتهاره هي فتنة الاعتزال، ومحنة خلق القرآن، ((وهي التي آثارها بعض المعتزلة منذ نهاية عهد هارون الرشـــيد فلاحقهم، إلى عهد المأمون الذي تبنى الاعتزال ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن في آخر عمره، وكان أحمد بن حنبل قد سُـــئل عمن يقول: القرآن مخلوق، فقال: كافر. فأمتحن فيها فأصـــر عليها فعذب في ذلك وضـــرب بالســـياط

وسجن في بغداد بإسطبل، وكان في حبس ضيق ومرض فيه. واستمرت محنته وعذابه إلى عهد المعتصم وهو يدفع ويدافع بالإسناد والآيات والأحاديث، وهو صابر على الجوع والعطش وما فيه من الهول. وقال صالح ابنه: وما ظننت ان أحدًا يكون في مثل شجاعته وشدة قلبه. وقال جلاده شاباص التائب: لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا، لو ضربته فيلًا لهدته. كل هذا ويقول: جعلت أبا إسحق يعني المعتصم، في حل، عملًا بأمر الله وقول الرسول ﷺ فالعفو أفضل ما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك))[68]. وهكذا استمرت محنته طيلة عهد الخليفة العباسي الواثق حتى مجيء الخليفة المتوكل، والذي قيل عنه: ((ولي جعفر المتوكل فأظهر السنة وفرج عن الناس، إذ أخبروه بعد أن أفرج عن احمد بن حنبل أنه يخفي علويًا في داره فأحرقوا داره، فلما تحرى المتوكل عن ذلك علم ان أبا عبد الله مكذوب عليه، وان ذلك دس من اهل البدع، وبرئت ساحته أمام أمير المؤمنين، فوجه إليه مالًا فأبى ان يقبله وقال: ما لي إليه حاجة، فنصحه حاجب المتوكل ان لا يرد المال حتى لا يضن به ضن السوء، ففرق المال على المحتاجين والمساكين، وظل المتوكل يراجعه ويرسل إليه الدواء والطبيب حتى وفاته))[69]، وقد أفرد الذهبي عشرات الصفحات في مؤلفاته للكلام عن محنة أحمد بن حنبل ولا مجال لذكرها بالتفصيل هنا.

وفاته:

قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: ((استكملت سبعًا وسبعين سنة، ودخلت في ثمان وسبعين سنة فحم من ليلته، ومات يوم العاشر))[70]، وعلى الرغم من محنته ومرضه وفقره فقد ترك لنا مؤلفات مهمة منها: مسند أحمد كتاب جليل مشهور، ويقال: ان له تفسيرًا كبيرًا، قيل: ((ان تفسير احمد مائة وعشرون ألفًا رواه عنه ولده عبد الله))[71]، وكانت وفاته سنة (241هـ/855م).

سادسًا: السري بن المغلس السقطي (رحمه الله)[72] (ت253هـ/867م):

ولادته ونشأته:

بعد الاطلاع على أكثر مؤلفات الذهبي ذات الصلة، فلم نعثر عن ما له صلة عن ولادة ونشأة الشيخ السري السقطي(رحمه الله) سوى ما ذكر عن تاريخ ولادته بقوله: ((ولد في حدود الستين ومائة-160هـ))[73].

علومه ومعارفه:

كذلك بالنسبة إلى علومه فإنه لم يورد سوى بعض الإشارات القليلة عن علومه، مثل كلامه عن روايته للحديث، فقال: ((، حدث بأحاديث قليلة، واشتغل بالعبادة، وصحب معروفًا الكرخي، وهو أجل أصحابه))[74]. وهو بهذا يكون قد برر عدم ذكره لتفاصيل عن علومه ومعارفه بقوله: واشتغل بالعبادة، يريد أنه صرف جل وقته للاشتغال بالعبادة والطاعات. وقال: ((كان

الســـري أول من أظهر ببغداد لســـان التوحيد، وتكلم في علوم الحقائق، وهو امام البغداديين في الإشارات))[75].

عائلته ومعيشته:

لم نعثر خلال الاطلاع على مؤلفات الذهبي عن أي شيء يخص عائلة السري السقطي، مكتفيًا بذكر بعض الإشارات عن معيشته ومهنته، ويذكر عنه قوله: ((كان لي دكان فاحترقت لي متاع فيه، عندما احترق السـوق، فلقيني رجل فقال: أبشـر، دكانك سـلمت، فقلت: الحمد لله، ثم فكرت فرأيتها خطيئة. ويقال: ان السري: رأى جارية سقط من يدها إناء، فانكسر، فأخذ من دكانه إناء، فأعطاها، فرآه معروف الكرخي، فدعا له، فقال: بغض الله إليك الدنيا))[76]. وهذا يدل على انه كان يعمل بالتجارة.

زهده وورعه وفضائله:

إن أكثر ما ذكره الذهبي في مؤلفاته عن السري السقطي هو ما رواه عن فضـائله وزهده وورعه، ومنها: ((قال الجنيد: سـمعت سـريًا يقول: اشـتهي منذ ثلاثين، جزرة أغمسـها في دبس وآكلها، فما يصح لي. وقال له أوصني. قال: لا تصحب الأشرار، ولا تشتغلن عن الله بمجالسة الأخيار. وقال سـمعته يقول: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مخافة أن يكون وجهي قد أسـود، وما أحب أن أموت حيث أعرف، أخاف ان لا تبلني الأرض، فأفتضـــح))[77]. وله وفيه من الأقوال كثير لا مجال لذكره.

وفاته:

كانت وفاة السـري السـقطي(رحمه الله) كما قال الذهبي: توفي في شـهر رمضـان سـنة (253هـ/867م)[78].

سابعًا: الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي[79] (813/298م):

ولادته ومهنته:

قال الذهبي: ((كانت ولادته ببغداد بعد العشرين ومائتين(220هـــ) فيما أحسب أو قبلها. وقيل: كان أبوه قواريريًا، يعني زجاجًا، وكان هو خزازا))[80]. ومن هنا يتضـــح انه كان يمتهن حرفة عمل الخز وبيعه [81]. وغير هذا لم يتطرق إلى نشـأته ولا إلى زوجته ولم يذكر سـوى ما ذكره عن والده فيما تقدم.

علومه ومعارفه:

قال عنه الذهبي: ((كان شيخ العارفين وقدوة السائرين، وعلم الأولياء في زمانه، رحمة الله عليه، وقد كان له باع في الحديث ورواية وعلم في الفقه وفتواه))[82]. وقيل انه قال: ((كنت أفتي في حلقة ولي عشـرون سـنة. وقال: ما أخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سـبيلًا، وإلا

وقد جعل لي فيه حظًا، وسمع يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به. سمع يقول: علمنا هذا – يعني التصوف – مشبك بحديث رسول الله (ﷺ). وقد ذكر أحد تلاميذه: رأيت يومًا لكم شيخًا ببغداد، يقال له الجنيد، ما رأيت عيناي مثله، كان الكتبة، أي كتاب الترسل يحضرونه لألفاظه، والفلاسفة يحضرونه لدقة معانيه، والمتكلمون يحضرونه لزمام علمه، وكلامه بائن عن فهمهم وعلمهم. وقال احد تلاميذه: لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير الجنيد، كانت له حظوة في العلم الغزير))[83]. وسمع العلم والحديث من شيوخه من سبق ذكرهم في ترجمته، ثم قال: ((واتقن العلم، ثم أقبل على شأنه، وحدث بشيء يسير، وكان ممن برز في العلم والعمل))[84].

صفاته وفضائله وعبادته ووفاته:

وعن عبادته قيل: ((انه كان في سوقه، وكان ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة، وكذا كذا ألف تسبيحة، ومن أقواله: أعلى درجة ان ترى نفسك، وأدناها ان تحظر ببالك، يعني نفسك، وقال: ما أخذنا التصوف عن القال والقيل، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات، وقال الجنيد: سألت الله ان لا يعذبني بكلامي، وربما وقع في نفسي أن زعيم القوم أرذلهم. وقال أحد تلاميذه: كنت عند الجنيد حين احتضر، فختم القرآن، قال: ثم ابتدأ فقرأ من البقرة سبعين آية ثم مات. وقيل: مات الجنيد في شوال ليلة النوروز سنة (298هـ/813م). قال: وذكر لي انهم حرزوا يومئذ الذي صلوا عليه نحو ستين ألف إنسان، ومازالوا ينتابون خيره في كل يوم ودفن عند السري السقطي))[85].

ثامنًا: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن انعمان، ابن المعلم[86] (413هـ/1022م):

في ترجمة الذهبي للشيخ المفيد في مؤلفاته الخاصة بالسير والتراجم، لم يتطرق إلى ولادته ونشأته ولم يذكر عن أصوله وعائلته شيء، وإن اكثر ما أهتم بالإشارة إليه هو حياته العلمية وأثره في مذهب الشيعة الإمامية، ثم تطرق بعد ذلك قليلًا لحياته السياسية ثم وفاته.

حياته العلمية:

أول ما ابتدأ به الذهبي في تعريفه عن الشيخ المفيد وقبل ان يعرف باسمه هو الإشارة إلى علمه بقوله: ((عالم الشيعة، صاحب التصانيف، الشيخ المفيد، واسمه: محمد بن محمد بن النعمان البغدادي، الشيعي، ويعرف بابن المعلم. كان صاحب فنون وبحوث وكلام، واعتزال وأدب، ثم يسود بعد ذلك ما قيل له عن تبحره في مختلف العلوم. يقول: فأطنب وأسهب وقال: كان أوحد في جميع فنون العلوم: الأصلين، والفقه، والأخبار، ومعرفة الرجال، والتفسير، والنحو، والشعر. وكان يناظر أهل عقيدة مع المنزلة العظيمة في الدولة البويهية، والرتبة الجسيمة عند الخلفاء، وكان قوي النفس، كثير البر، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، يلبس الخشن من

الثياب، وكان مديمًا للمطالعة والتعليم، ومن احفظ الناس. وكان من أحرص الناس على التعليم، كان يدور على المكاتب وحوانيت الحاكة، فيلتمح الصبي الفطن، فيستأجره من أبويه، قال: وبذلك كثر تلامذته))[87].

صفاته وشمائله:

لم يشر الذهبي(رحمه الله) الى الكثير من صفات وفضائل الشيخ المفيد في مؤلفاته سوى ما تقدم عن حياته العلمية ومن خلالها ذكر بعض الشيء مما نقله عن صفاته بقوله: ((كان ربعة نحيفا أمرد، وكان قوي النفس، كثير البر عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، يلبس الخشن من الثياب))[88].

وقد ذكر لنا الامام الذهبي شـــيئًا عن مناظراته بقوله: ((وكان يناظر أهل كل عقيدة مع العظمة في الدولة البويهية، والرتبة عند الخلفاء))[89]. ثم يذكر في كتابه العبر في خبر من غبر في سياق ذكره لأحداث سنة (398هـ/1007م): ((وفيها كانت فتنة هائلة ببغداد، قصد رجل شيخ الشيعة ابن المعلم، وهو الشيخ المفيد، واسمعه ما يكره، فثار تلامذته، وقاموا واستنفروا الشيعة، وأتوا دار قاضـي القضـاة، والشيخ ابن الأسفراييني[90] فسبوهما وحميت الفتنة، ثم قال: فانهزمت الشـــيعة، وأحرقت بعض دورهم وذلوا، وأمر عميد الجيوش بإخراج ابن المعلم من بغداد فأخرج، وحُبس جماعة، ومنع القصاص مدة))[91].

وفاته:

قال الذهبي: ((أنه عاش ستًا وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنف، إلى أن قال: مات سنة ثلاث عشر وأربع مائة(413هـ)، وشيعه ثمانون ألفًا))[92].

تاسعًا: الشيخ عبد القادر الكيلاني (رحمه الله)[93]: (471-561هـ/1077-1165م):

مولده ونشأته:

كان مولده كما ذكر الذهبي: ((بجيلان في سنة احدى وسبعين وأربع مائة(471هـــ). ثم قال: وقدم بغداد شابًا، فتفقه بها)) [94].

علومه ومعارفه:

قال احد تلاميذه: ((كان عبد القادر من أهل جيلان – يقول هي من بلاد ما وراء طبرستان، إمام الحنابلة، وشيخهم في عصره، فقيه صالح دين خير، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة، تفقه على المخرجي[95]، وكان يسكن بباب الأزج[96]، في مدرسة بنيت له. كان أبو سعد المخرجي قد بنى له مدرسة لطيفة بباب الأزج، ففوضت إلى عبد القادر فتكلم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد، وكان له سمت وصمت، وضاقت المدرسة بالناس، فكان يجلس عند سور بغداد مستندًا إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير، فعمرت المدرسة

ووسعت، وتعصب في ذلك العوام، وأقام فيها يدرس ويعظ إلى أن توفي))[97]. ثم ذكر لنا سلسلة الإسناد التي روى من خلالها الشيخ بعض الأحاديث عن النبي (ﷺ). ثم قال: ((وكان له مجلسًا علميًا يحضره العامة والعلماء، فذكر احد تلاميذه، انه سمع أبا البقاء النحوي، فقال: حضرت مجلس الشيخ عبد القادر، فقرؤوا بين يديه بالألحان، فقلت في نفسي: ترى لأي شيء ما ينكر الشيخ هذا؟ فقال يجيء واحد قد قرأ أبوابًا في الفقه ينكر، فقلت في نفسي لعله قصد غيري،فقال: اياك نعني بالقول، فتبت في نفسي من اعتراضي، فقال: قد قبل الله توبتك.))[98]، وفي ما يخص نشأته العلمية، قال: ((دخل الشيخ عبد القادر بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربع مائة، فتفقه بها، حتى أحكم الأصول والفروع. وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتغل بالوعظ إلى ان برز فيه، ثم لازم الخلوة والرياضة والمجاهدة والسياحة والقيام في الصحراء والخراب، ثم ان الله اظهره للخلق، وأوقع له القبول العظيم، فعقد المجلس في احدى وعشرين، وأظهر الله الحكمة على لسانه، ثم درس، وافتى، وصار يقصد بالزيارة والنذور، وصنف في الأصول والفروع، وله كلام على لسان أهل الطريق عال))[99].

صفاته وزهده وعبادته وكراماته:

ذكر أحد تلامذته قول الشيخ عبد القادر(رحمه الله)، قال: ((طالبتني نفسي يومًا بشهوة، فكنت أضاجرها، وأدخل في درب، وأخرج من آخر أطلب الصحراء، فرأيت رقعة ملقاة، فإذا فيها: ما للأقوياء والشهوات، وإنما خلقت الشهوات للضعفاء، فخرجت الشهوة من قلبي، قال: وكنت اقتات بخروب الشوك، وورق الخس من جانب النهر. وقال: كنت في الصحراء أكرر في الفقه وأنا في فاقة، فقال لي قائل لم أر شخصه: اقترض ما تستعين به على طلب الفقه، فقلت وكيف اقترض وأنا فقير ولا وفاء لي، قال: اقترض وعلينا الوفاء. قال: ولحقني الجنون مرة، وحملت إلى المارستان، فطرقتني الأحوال حتى حسبوا أني مت فجاؤوا بالكفن، وجعلوني على المغتسل، ثم سري عني، وقمت، ثم وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن، فخرجت من باب الحلبة، فقال لي قائل: إلى أين تمشي، ودفعني دفعة خررت منها، وقال: أرجع، فإن للناس فيك منفعة، قلت أريد سلامة ديني، قال: لك ذاك))[100]. ثم يذكر أحد تلامذته ان الشيخ عبد القادر قال له: ((كنت أؤمر وأنهى في النوم واليقظة، وكان يغلب عليّ الكلام، ويزدحم على قلبي ان لم أتكلم به حتى أكاد اختنق ولا اقدر اسكت، وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، ثم تسامع الناس بي، وأزدحم عليّ الخلق، حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفًا وقال عبد الرزاق ولده عنه انه قال: إذا ولد لي ولد أخذته على يدي، وأقول هذا ميت، فأخرجه من قلبي، فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئًا، ثم قال: ولد لأبي تسعة وأربعون ولدًا، سبعة وعشرون ذكرًا، والباقي إناث.

وكان كثيرًا ما يطعم الطعام، فيقول: فتشت الأعمال كلها، فلم أجد فيها أفضل من اطعام الطعام، أود لو ان الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، لو جاءني ألف دينار لم أبيتها))[101].

وفاته:

((عاش الشـــيخ عبد القادر تســـعين ســـنة، ومات في العاشـــر من ربيع الآخر سنة(561هـ/1165م)، وشيعه خلق لا يحصون، ودفن بمدرسته رحمه الله تعالى))[102].

الخاتمة

كانت رحلتنا في بحثنا هذا لجرد موجز لأهم ما ورد في مؤلفات السير للإمام الذهبي عن ســـير أهم العلماء الأعلام من أقطاب بغداد في العصـــر العباســـي، وذكر ما ورد عن ســـيرهم الشخصية والعلمية. وقد تبين لنا من ذلك:

1- قد لوحظ تكرار تلك السير مع إضافات ومعلومات بسيطة في تلك المؤلفات لأهميتهم ودورهم الريادي والفكري في العصر العباسي مع تباين تلك المعلومات الواردة في مؤلفاته وزيادتها وقلتها من قطب لآخر حسب الأهمية والدور الذي قام به ذلك القطب.

2- تبين لنا ان قسم من الأقطاب يشتركون في بعض الصفات، إذ كان التقائهم واشتراكهم في صفات التقوى والورع والزهد والعبادة، وكانت هذه صفة تكاد تكون عامة لأكثرهم، مع تمييز بعضهم في هذه الصفات واشتهارهم بها.

3- كان المستوى العلمي هو الفارق بين أولئك الأقطاب، إذ برع بعضهم في ذلك الجانب ونبغ فيه، حتى صار علمًا يشار إليه بالبنان، ويتبين ذلك من خلال ما تركوه من مؤلفات علمية في المجالات التي برعوا فيها.

4- لقد تميز بعض أولئك الأقطاب في الجانب الفقهي حتى صاروا أصحاب مذاهب فقهية تتبع في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا، أمثال الإمام (أبو حنيفة) والإمام (أحمد بن حنبل) رحمهما الله.

5- كان لبعضهم مجالس علمية ولهم تلاميذ يتبعونهم، حتى صارت علومهم علم ينتفع به إلى يومنا هذا، إذ وصل إلينا من خلال أولئك التلاميذ ومؤلفاتهم في ذلك، فضلًا عن قيام بعضهم بتدريس علومهم في مدارس بغداد آنذاك.

6- نرى أن القليل منهم كان له احتكاك بالسلطة والسياسة، أو أنهم زجوا فيها رغم أنفهم ودون إرادتهم، وامتنع قسم آخر منهم من الخوض في ذلك فتم زجهم في السجون أو تم تعذيبهم أمثال: الإمام (أبو حنيفة)، والإمام (أحمد بن حنبل) (رحمهما الله)، والإمام (موسى الكاظم)، والإمام (محمد الجواد) (عليهما السلام).

7- ان دراستنا في بحثنا هذا لم تكن دراسة مقارنة مع بقية المصادر التاريخية الاخرى التي تناولت تلك الحقبة من العصر العباسي, وانما لبيان ماجاء في مؤلفات الامام الذهبي(رحمه الله) من كتب التراجم, عن اولئك الأقطاب والعلماء الاعلام في ذلك العصر لبيان أهميتها في تلك المؤلفات, ولقرب ولادته عن تاريخ سقوط الدولة العباسية الذي يقدر بعشرين سنة تقريبا, فربما لم تكن تلك الاخبار والتراجم التي نقلها عنهم بتلك الدقة, أو أنها لم تتوافق توافقا كبيرا مع ما جاء عنهم في بقية المصادر التاريخية المعاصرة له أو التي كانت قبله أو بعده, فهذا شأن آخر يحتاج الى دراسات اوسع وأكبر من بحثنا المتواضع لبيان ذلك, حتى لا يلتبس الأمر على من يطلع على حياة أولئك الأقطاب في المصادر التاريخية وكتب التراجم الأخرى لبقية العلماء المعاصرين للإمام الذهبي(رحمه الله) أو الذين كانوا قبله أو ممن جاءوا بعده.

وهذا ما قدرنا الله تعالى على بيانه عسى ان ينتفع به، والله ولي ذلك، وهو ولي التوفيق.

الهوامش والمصادر:

(1) ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت764هـ/1362م)، فوات الوفيات، تحقيق: احسان عباس، (بيروت، دار صادر، د.ت): ج3، ص315؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ/1265م): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، (بيروت، دار الفكر، 1418هـ/1998م): ج44، ص288.

(2) أبو المحاسن، محمد بن علي بن حمزة (ت765هـ/1363م)، ذيل تذكرة الحفاظ، ط1، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م): ص22؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ/1369م)، معجم الشيوخ، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1425هـ/2004م): ص352.

(3) ميافارقين: بلد معروف بديار بكر من أعمال الجزيرة، قرب بلدة ارمينية شرقي نهر دجلة. ينظر: البكري، إبراهيم بن محمد الفارسي (ت487هـ/1094م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط3، (بيروت، عالم الكتب، 1403هـ/1982م): ج4، ص1286؛ أبو المحاسن، ذيل تذكرة الحفاظ: ص22.

(4) أبو المحاسن، ذيل تذكرة الحفاظ: ج1، ص22؛ السبكي، معجم الشيوخ: ص219.

(5) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ/1369م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وآخرون، ط2، (د.م، هجر للطباعة، 1413هـ/1992م): ج5، ص216.

(6) ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي الظاهري (ت874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (مصر، دار الكتب، د.ت): ج10، ص153؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (ت1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، (بيروت، دار ابن كثير، 1406هـ/1986م): ج6، ص153.

(7) ابن شاكر، فوات الوفيات: ج3، ص315؛ السبكي، معجم الشيوخ: ص253.

(8) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ/1265م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخرون، (بيروت: دار احياء التراث، 1420هـ/2000م) : ج2، ص115.

(9) ابن شاكر، فوات الوفيات: ج3، ص316.

(10) المصدر نفسه: ج3، ص115.

(11) المصدر نفسه: ج3، ص316.

(12) المصدر نفسه: ج3، ص316.

(13) المصدر نفسه: ج3، ص315.

(14) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت911هـ/1505م)، ذيل طبقات الحفاظ، تحقيق: زكريا عميران، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت): ص521.

(15) ابن شاكر، فوات الوفيات: ج3، ص316.

(16) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت395هـ/1004م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت، دار الفكر، 1399هـ/1978م): ج5، ص105.

(17) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت393هـ/1002م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،

تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، ط4، (بيروت، دار العلم للملايين، 1407هـ/1986م): ج1، ص204.

(18) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ/1347م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط2، (الكويت، مطبعة حكومة الكويت، 1368هـ/1948م): ج4، ص163.

(19) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت بن زوطي بن مان الفقيه الكوفي، مولى تيم الله بن ثعلبة، أدرك أربعة من الصحابة، وأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان، ونقله المنصور من الكوفة إلى بغداد، وقيل هذا ضربه ابن هبيرة مائة سوط أيام مروان بن محمد على أن يلي القضاء فرفض، من شيوخه: أبي جعفر محمد الباقر (عليه السلام)، وانه روى عن عطاء بن رباح وهو أكبر شيخ له، وعن الشعبي، ونافع مولى ابن عمر، وحماد بن أبي سليمان – وبه تفقه –، وابن شهاب الزهري، وهشام بن عروة، وخلق سواهم، وحدث عنه خلق كثير من تلاميذه منهم: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (قاضي القضاة)، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزفر بن الهذيل الفقيه وغيرهم. ينظر: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار صادر، 1424هـ/1994م): ج5، ص405؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط3، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1415هـ/1994م): ج6ص390-304.

(20) الذهبي، مناقب الإمام أبي حنيفة، تحقيق: محمد زاهد الكوثري وآخرون، ط3، (حيدر آباد، لجنة احياء المعارف النعمانية، 1408هـ): ج1، ص13.

(21) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج6، ص390-403.

(22) المصدر نفسه: ج6، ص390-394.

(23) خزاز: الخز ثياب تنسج من صوف وابريسم (حرير) وبائعه يسمى خزاز. ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، (القاهرة: دار المعارف، د.ت): ج2، ص1149.

(24) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج6، ص390-394.

(25) المصدر نفسه: ج6، ص395-398.

(26) المصدر نفسه: ج6، ص397.

(27) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2003م): ج3، ص990-994.

(28) الذهبي، مناقب أبي حنيفة: ج1، ص24.

(29) إبراهيم: ابن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وهو أخو محمد النفس الزكية، اللذان خرجا بالمدينة والبصرة على أبي جعفر المنصور. ينظر: ابن سعد، محمد بن منيع (ت230هـ/844م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد بن هامل السلمي، (الطائف، مكتبة الصديق، 1414هـ/1993م): ج1، ص512.

(30) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج1، ص26.

(31) موسى بن جعفر: هو الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والد علي بن موسى الرضا، مشهده ببغداد، مولده بالمدينة سنة (128هـ)، ووفاته ببغداد سنة (183هـ). ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج4، ص984.

(32) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج6، ص372.

(33) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج4، ص984.

(34) المصدر نفسه: ج6، ص374.

(35) سورة محمد: آية 22.

(36) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج6، ص374.

37) المصدر نفسه، ج6، ص374.

(38) السندي: مولى المنصور، وصاحب سجن الرشيد، توفى في خلافة المأمون سنة (204هـ). ينظر: ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت280هـ/893م)، كتاب بغداد، تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط3، (القاهرة، مكتبة الخانجي، 1423هـ/2002م): ص187.

(39) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج6، ص375.

(40) الشونيزية: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي دفن بها الكثير من الصالحين، والمعروف انه دفن في مقابر قريش (باب التبن). ينظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت626هـ/1228م)، معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، 1416هـ/1995م): ج3، ص374.

(41) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج6، ص274-275.

(42) المصدر نفسه: ج6، ص375.

(43) معروف الكرخي: بن الفيرزان، أبو محفوظ، كان أحد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا، يغشاه الصالحون، وكان يوصف بأنه حجاب الدعوة، وأخذ الحديث عن شيوخه ومنهم: الربيع بن صبيح وبكر بن خنيس وعن ابن السماك وغيرهم، وروى عنه تلاميذه ومنهم: خلف البزار، وزكريا بن يحيى المروزي، ويحيى بن أبي طالب وغيرهم. ينظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت (ت463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1422هـ/2001م): ج15، ص263؛ الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ج4، ص1210.

(44) واسط: بين البصرة والكوفة عمرها الحجاج بن يوسف الثقفي. ينظر: الحموي، معجم البلدان: ج5، ص347.

(45) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج4، ص1210.

(46) المصدر نفسه: ج4، ص1210.

(47) سفيان بن عيينة: بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولى محمد بن مزاحم، حافظ، عالم، طلب الحديث وهو صغير، مات سنة (198هـ). ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج8، ص470.

(48) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج4، ص1210.

(49) المصدر نفسه: ج4، ص1210.

(50) المصدر نفسه: ج4، ص1210.

(51) المصدر نفسه: ج4، ص1210.

(52) المصدر نفسه: ج4، ص1210.

(53) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج6، ص375.

(54) محمد الجواد: محمد بن علي الرضى بن موسى الكاظم الطالبي الهاشمي القرشي، أبو جعفر، الملقب بالجواد، تاسع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، ولد في المدينة، وانتقل مع أبيه إلى بغداد، توفى والده وتكفله المأمون وزوجه ابنته أم الفضل، وقدم المدينة ثم عاد إلى بغداد فتوفى فيها. ينظر: الزركلي، خير الدين محمود بن

محمد الدمشقي (ت1396هـ/1976م)، الأعلام، ط15، (بيروت، دار العلم للملايين، 1423هـ/2002م): ج6، ص271.

(55) الذهبي، العبر في خبر: ج1، ص300.

(56) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج6، ص375.

(57) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج5، ص254.

(58) احمد بن حنبل: هو احمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس، الشيباني، المروزي، ثم البغدادي، أبو عبد الله، سمع الحديث وهو صغير وحفظه، وحج خمس حجج، وطاف البلاد والآفاق وسمع المشايخ، فمن شيوخه: هشيم، وسفيان بن عيينة، والقاضي أبو يوسف، والشافعي، وخلق كثير. أما أهم تلاميذه ومن روى عنه: البخاري، ومسلم، وابناه صالح وعبد الله، وأقرانه منهم: علي ابن المديني ويحيى بن معين، وخلق آخرهم أبو القاسم البغوي. ينظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1408هـ/1987م): ج10، ص359؛ الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيت المشاهير والاعلام، ج5، ص1010.

(59) الذهبي، المصدر نفسه: ج5، ص1010.

(60) المصدر نفسه: ج5، ص1010.

(61) الجزيرة: الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرت أي في الجزء الشمالي من العراق وسوريا- بمحاذاة الحدود التركية الحالية. ينظر: البكري، إبراهيم بن محمد الفارسي (ت487هـ/1094م)، المسالك والممالك، (القاهرة، الهيئة العامة للثقافة، د.ت): ص71 .

(62) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج5، ص1011.

(63) الذهبي، العبر في خبر: ج1، ص342.

(64) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج5، ص1034.

(65) المصدر نفسه: ج5، ص1034.

(66) المصدر نفسه: ج5، ص1010.

(67) المصدر نفسه: ج5، ص1023.

(68) المصدر نفسه: ج5، ص1036.

(69) المصدر نفسه: ج5، ص1049.

(70) المصدر نفسه: ج5، ص1063.

(71) المصدر نفسه: ج5، ص1022.

(72) السري السقطي: بن المغلس، أبو الحسن البغدادي، قدم دمشق، حدث عن هشام بن عروة، والفضيل بن عياض، وهشيم بن بشير وغيرهم، وروى عنه الجنيد بن محمد، وأبو العباس بن مسروق وغيرهم. ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الانصاري الافريقي (ت٧١١هـ/١٣١١م)، مختصر تاريخ دمشق، (ط١، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٧/1986م): ج9، ص215؛ الذهبي، سير اعلام، ج12، ص185.

(73) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج12، ص185.

(74) المصدر نفسه: ج12، ص185.

(75) المصدر نفسه: ج12، ص185.

(76) المصدر نفسه: ج12، ص187.

(77) المصدر نفسه: ج12، ص186-187.

(78) الذهبي، العبر في خبر: ج1، ص363.

(79) الجنيد البغدادي: الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم، النهاوندي الأصل، البغدادي، القواريري الخزاز، سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام وشيخ طريقة التصوف وعلم الأولياء في زمانه وبهلوان العارفين، من شيوخه في الفقه: أبي ثور، واختص بصحبة السري السقطي، والحارث المحاسبي، وأبي حمزة البغدادي، ومن تلاميذه: جعفر الخالدي، وأبو محمد الحريري، ومحمد بن علي بن حبيش وغيرهم. ينظر: الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ج6، ص924؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: ج2، ص260.

(80) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام: ج6، ص924.

(81) ابن خلكان، وفيات: ج1، ص374 ؛ الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ج6، ص924.

(82) الذهبي، المصدر نفسه: ج6، ص924.

(83) المصدر نفسه: ج6، ص924.

(84) المصدر نقسه: ج6، ص924.

(85) المصدر نفسه: ج6، ص924.

(86) الشيخ المفيد: محمد بن محمد بن النعمان، عالم الشيعة أبو عبد الله، ابن المعلم صاحب التصانيف البديعة وهي مائتا تصنيف طعن فيها على السلف له صولة عظيمة بسبب عضد الدولة، شيعته ثمانون ألفًا من الشيعة، واخذ من الرازي احمد بن محمد شيخ الشيعة ومصنفهم، ومن تلاميذه: الشريف أبو يعلى الجعفري وانه لازم الشيخ المفيد، ثم أبو جعفر الطوسي وقال: أنه أخذ الكلام وأصول الدين عن الشيخ المفيد، مات سنة ثلاث عشر وأربعمائة. ينظر: الذهبي، سير اعلام،ج13، ص96؛ ابن حجر، احمد بن علي بن محمد العسقلاني(ت852هـ/1448م)، لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعارف العثمانية – الهند، (بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1390هـ/1970م): ج5، ص365.

(87) الذهبي، سير اعلام: ج13، ص96.

(88) المصدر نفسه: ج13، ص96.

(89) المصدر نفسه: ج13، ص96.

(90) الأسفراييني: هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه الأصولي أبو إسحاق بن مهران الأستاذ الإمام، أحد من بلغ الاجتهاد لتبحره في العلوم واستجماعه شرائط الإمامة من العربية والفقه والكلام والأصول والسنة،، توفى سنة (418هـ). ينظر: ابن الأزهر، إبراهيم بن محمد الصرفيني (ت641هـ/1243م)، المنتخب من كتاب السياق في تاريخ نيسابور، (بيروت، دار الفكر، 1414هـ/1993م): ص127.

(91) الذهبي، العبر في خبر: ج2، ص192.

(92) الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، (بيروت، دار المعرفة، 1382هـ/1962م): ج4، ص30.

(93) الكيلاني: عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي روست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، والجيلي: مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد، والمتصوفين،ومن شيوخه: ابن عقيل، وأبي الخطاب، والمخرجي، وأبي الحسين بن الفراء وحدث عنه: السمعاني، وعمر بن علي القرشي، والحافظ عبد الغني، والشيخ

موفق الدين بن قدامة، وعبد الرزاق وموسى ولداه وغيرهم، ولد في جيلان وانتقل إلى بغداد شابًا، تصدر للتدريس والافتاء، له كتب منها: الغنية لطالبي طريق الحق، والفتح الرباني، وغيرها. ينظر: الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج20، ص441؛ الزركلي، الأعلام: ج4، ص47.

(94) الذهبي، سير اعلام النبلاء: ج20، ص441.

(95) المخرجي: أبو سعد المبارك المخرجي الفقيه، هو الذي بنى المدرسة الخرمية في بغداد، ودرس بها الشيخ عبد القادر، الى وفاته ودفن بها. ينظر: ابن المستوفي، المبارك بن أحمد المبارك (ت637هـ/1239م)، تاريخ أربل، تحقيق: سامي بن سيد خماس، (بغداد، دار الرشيد للطباعة، 1401هـ/1980م): ج2، ص590.

(96) باب الأزج: محلة كبيرة شرقي بغداد. ينظر: الحموي، معجم البلدان: ج1، ص168.

(97) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج20، ص441.

(98) المصدر نفسه: ج20، ص443.

(99) المصدر نفسه: ج20، ص444.

(100) المصدر نفسه: ج20، ص447.

(101) المصدر نفسه: ج20، ص447.

(102) المصدر نفسه: ج20، ص450.